الشيخ كاظم الصحاف شاعـــراً ..1313 هـ - 1399هـ

مـابـالُ ثـارِكَ عـن مـثـارِكَ نـازحُ

ولَـكَـم شجاهُ مِن الصبابة صادحُ

وإلامَ لـم تـنـهـض بـه مـتـطـلّـبـًـا

والـسيف في كف انتصارك لائحُ

أنـت الرجا والمرتجى والغيثُ إنْ

عـزّ الـنـصـيـر وقَـلّ فيه الناصحُ

ضاق الخناق أبا الفتوح ولم نجد

إلاّك فـاتـحـهـا فـأنـت الـفـاتـحُ

وكذلك جده الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحاف رحمه ا كان شاعرا مجيدا أيضا و من شعره في تخميس إحدى القصائد الشهيرة في أهل البيت عليهم السلام :

مِـن نـكـبـات الـدهر لا أجزعُ

وإنـنـي فـي الـعيش لا أطمعُ

وقائلٍ لي صاحِ ما تسمعُ

(لأمّ عمرو باللوا مربعُ

طامسةٌ أعلامهُ بلقعُ)

دارٌ حوَت غيداء حلّيةً

كانت بحسن الوصف معنيةً

فصيّرتها الريحُ معفيّةً

(تروح عنها الطير وحشيةً

والأُسْدُ مِن خيفتها تفزعُ)

قد كنتُ في الليل لها أغلسُ

وفي حشا قلبي لها مجلسُ

مربعها تشجى به الأنفسُ

(برسم دارٍ ما بها مؤنسُ

إلا صلالٌ في الثرى وُقّعُ)

تشوّق القلبُ لمحبوبهِ

لأنه غاية مطلوبهِ

لـــلـــه دهـر كـنـت أخـلـو بـهِ

(ذكرتُ مَن قد كنتُ ألهو به

فـبـتُّ والـقـلـب شَجٍ مولعُ)

والمدهش أيضا أن الشيخ كاظم الصحاف رحمه ا إنسَلّ وكالشعرة من العجين من براثن الغزل الماديّ الذي قلّمـا يستطيع شاعر مهما كانت درجة ورعه و تدينه الإنفلاتَ منها , فنادرا ما تجد أبيات نسيب أو تشبيب للشيخ كاظم , و حتى وإنْ وجدتَ فستكتشف أنها مجرد مقدمة لقصيدة مدح أو رثاء لأحد أئمة أهل البيت ا لطاهرين عليهم السلام أو لأحد رموز الأمة , يجاري بذلك أسلافه من الشعراء الذين اعتادوا افتتاح قصائدهم بأبياتٍ من الغزل لجذب انتباه السامع وليس قصدا للغزل و التشبيب . وذلك لعمري دليل واضح وإشارة جلية إلى امتلاء قلبه واكتناز مشاعره بمودتهم وبالولاء لهم عليهم السلام وقد عبّـر هو عن ذلك بقوله :

إنّ قلبي اهتدى بآل محمد

وولائـي لآلـهِ قـد تـأكّـدْ

يـا كـتـابـي فقل لكل أديبٍ

لـوذعـيٍّ له الثقافة تشهدْ

سَعُدَ الناس بالملوك وإنّـا

قـد سعُدنا بحب آل محمدْ

وكأنّ الشيخ كاظم رحمه ا أراد أن يدخل فيما دخل فيه عميد شعراء الولاء الهَجَريّ (سفيان بن مصعب العبدي) وشاعر بني عبد القيس الخالد الذي استأثر بشرفٍ لم يحض به شاعرٌ من قبله ولا من بعده عندما قال الإمام الصادق عليه السلام في حقه (علّموا أولادكم شعرَ العبدي فإنه على دين ا) .

وسأورد من الشواهد ما يثبت أن الشيخ كاظم رحمه ا لم يكن يقصد الغزل إلا لجذب انتباه المتلقي ولفتح نوافذ روح السامع لنور مناقب وطيب سجايا مَن أذهب ا عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا , يقول في مقدمة قصيدة في مدح النبي الأعظم محمد صلى ا عليه وآله :

أهيَ الشمس أشرقت بضحاها

أم سُلـيمى بحسنها و ضياها

لـست أنـسى لها مرابع أنسٍ

قـد هـوتـنـي بـهـا كما أهواها

لـيتها قد وَفَت ولو بعض يومٍ

عـلّ نفسي تطيب مما اعتراها

وزمـانـي بـهـا يـعـود بـوصلٍ

وبـــســـعـدٍ ولـذّةٍ فـي هـواهـا

مـثـلـما عاد لي الزمان سعيدًا

يـوم مـيـلاد سـيّـد الرّسْل طه

ويقول في مطلع قصيدة أخرى في النبي الأكرم أيضا عليه الصلاة والسلام :

أشعاع الشمس أمِ الفرقدْ

طلَعَـا لي أمْ وجه الأغيدْ ؟

فكأنّ الشمس بغرّتهِ

والورد بخدّيه تورّد

أصفيتُ له حبي عشقـًا

ووفيتُ له فيما يُعهَدْ

فأحلّ العقدَ و خان العهدَ

وفلّ الوعدَ و عني صَدّ

إلى ان يقول:

فكأن النور بطلعتهِ

قد جاء من ا لهادي الأسعد

وختام ا لرسل وسيدها

وسراج هدى الرب الأوحدْ

ويقول في مطلع قصيدة في مدح أمير المؤمنين عليه السلام :

أسناءُ الفجر لنا كبّرْ

بجبينك أم بدرٌ أزهَرْ ؟

وثنايا الثغر تلوح لنا

أم ذاك ا لدرّ أم الجوهر

ياريم الحيِّ وأختَ البدر

ونور الصبح إذا أسفر

إن كان بدا مني ذنبٌ

فبمدح أبي حسنٍ يُغفَرْ

فبه نفسي أمِنَت و نجَتْ

في الحشر من الفزَع الأكبر

وحتى عندما يشكو الشيخ كاظم الزمان و جور بعض حساده عليه فلا يعوذ ولا يلوذ إلا بحبل ا و سفينة النجاة عليهم الصلاة والسلام , يقول رحمه ا:

أنفسيَ مِن جور الزمان غدت حرّى

أم الدهر وافاني ببطشته الكبرى؟

أعاني العَدَا طول الزمان وإنني

بفضل إله العرش لم أعرف الشرّا

وأسمع أقوالا تقطّع مهجتي

كأني لا أدري وكنت بها أدرَى

و أجبر فوق الضر نفسي تكلّفا

وما كُلف الإنسان كرها و لا ضرا

وأمسك في عيني سيول مدامعي

وأكتم والأحشاء من حَرهِ حرّى

فطورا بوادي الحزن ترقل ناقتي

وطورا بسوط الحمد أزجرها شكرا

وآليت لا أرمي زمام عقالها

بنارٍ ولا أدعو سوى الآية الكبرى

فذاك عليٌّ خير من وطئ الثرى

وحجة دين ا في الضر والسرا

فلا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى

كمثل عليٍّ حيثما صال أو كرّا

فمنذا يضاهيه بفضلٍ و رفعةٍ

وقد كلّت الأقلام عن عدها حصرا

وحارت به الأوهام حتى تقاصرتْ

وتاهت ولم تدرك مقاما ولا قدرا

ويمكن للباحث و الدارس اعتبار هذه القصيدة الرصينة دليلا على ما كان يتوفر عليه الشيخ كاظم رحمه ا من موهبة شعرية وقّادة و حس أدبي ثري .

وعاملٌ آخر من العوامل التي تشكلت منها (الكاريزما) المذهلة للشيخ كاظم الصحاف رحمه ا وهو جرأته الكبيرة ضد كل ما يتعارض مع الإخلاص في الوفاء لمبادئ أهل البيت عليهم السلام وكل ما ينافي ما دعوا إليه من معرفة و تمجيد وطاعة ا سبحانه و تعالى , ومن ذلك رده الشهير على قصيدة (الطلاسم) للشاعر إيليا أبو ماضي , فقد تصدى الشيخ كاظم لكل ما أطلقه أبو ماضي في تلك القصيدة من شكوك وحيرة , يقول الشيخ كاظم في مواضع متفرقة من رده :

بوجود الكون والأنوار فيه تتلالا
أثبت العقلُ إلهً أزليا قد تعالى
وقديما أحديا عز قدرا و جلالا
وقديرا بيديه الخير يجري
كنت أدري ..

يا مُريبا سأل البحر وقد زاد ارتيابا

عن دليل العقل والنقل فخذ مني الجوابا
لم تكن أنت من البحر ولا الراوي أصابا
أنت من قدرة ربي لستَ منه
كنت أدري ..

إنّ في الدير رجالا طلّقو الدنيا اعتزالا

بعقول راجحاتٍ وعلومٍ تتلالا

وحلومٍ راسياتٍ كجبال ٍ لن تزالا

ماهمُ عميٌ ولكن أنت أعمى

كنت أدري ..

فإذا شمْتَ تساوي الناس في هذا المكان

فمقام العدل والظلم فلا يستويان

فشقيٌّ في جحيمٍ و سعيدٌ في جنان

فستأتيه وهذا العدل يجري

كنت أدري ..

ولنا من بعد هذا الموت بعثٌ و نشور

لم يكن في قدرة المبدع عجزٌ و قصور

وكلام ا صدقٌ وكلام الرسْل نور

وسواه كان كفرا و ضلالا

كنت أدري ..

وقصورٌ قد بنيناها لمجدٍ و حياة

وبها خِلنا سنبقى و ستبقى خالدات !

فقضى ا عليها فتلاشت خاويات

لنراها كيف تفنى وهو يبقى

كنت أدري ..

ولا شك أن علاقة الشيخ كاظم رحمه ا بكبار علماء عصره و ثقتهم به و اعتمادهم عليه كآية ا الميرزا موسى الحائري قدس سره و آية ا الشيخ حبيب بن قرين قدس سره و آية ا الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قدس سره وآية ا الشيخ موسى بو خمسين قدس سره كانت أحد أسباب إيمان الناس بما ينطوي

عليه هذا الرجل من سجايا كريمة و مواهب شريفة ,

فقد بعثه آية الله الميرزا موسى الحائري إلى سوق الشيوخ نائبا ووكيلا عنه , كما كان وكيلا أيضا عن آية الله الشيخ حبيب بن قرين و آية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء .

وعندما عاد الشيخ كاظم من العراق إلى الأحساء استضافة آية الله الشيخ موسى بوخمسين وأكرمه أيّما إكرام , وعندما سافر الشيخ كاظم إلى البحرين أحسّ بشوق عارم إلى الأحساء وأهلها , فنظم قصيدة جميلة و بعثها إلى الشيخ موسى يمدحه و يعبر عن حنينه للأحساء وأهلها بحنينه للشيخ موسى يقول فيها :

أرى أنْمُلي يا زعيم الحِكَمْ
عراها ارتعاشٌ بضمّ القلمْ
وقد كان ينطق كالعندليب
فأضحى لهيبتكم كالأصم
ومن عجبٍ نظمه للحروف
وأحرفكم نسخَتْ ما نظَمْ
أمولايَ هب لي فنون الكلام
وعلم البيان بنطقٍ و فمْ
ترفّعتَ بالعلم والمكرمات
وسُدتَ بها عربها والعجم
فأنت المراد و نور البلاد
وعز العباد و كنز الشيم
وفيك الحسا قد علا قدرها
وأضحت تفاخر بين الأمم

وعندما انتقل آية ا الشيخ موسى بو خمسين إلى جوار به رثاه بقصيدة عبّر فيها عن صدق محبته له و حزنه على فقده يقول فيها :

قد حُقّ أن لا أرى في الأرض مبتسِما

أنّى .. وأثبتُ ركنٍ للهدى انهدما ؟

لفقد مَن كان للإسلام ركن حمًى

أعني به الشيخ موسى سيّد العلما

أعظِم بفقد عظيمٍ جلّ فادحُهُ

على الحساءِ فعمّ العُرْبَ والعجما

أصيح يا حاملا نعش الحبيب فقف

لا ترحلنَّ فقلبي ذاب وانصرما

إنه الحب الحقيقي والمشاعر الصادقة عندما تنهمر سحْرًا و لوعةً ووفاءً ووجداَ . ولماذا لا يكون الشيخ كاظم كذلك وهو ربيب مدرسة الوجد الحسيني , وفارس منابر الشّجى الكربلائي , ولسان الباكين على سيد الشهداء عليه السلام و ما تأبينه للشيخ موسى إلا حرف واحد من أبجدية حزنه على أبي الأحرار الذي قال في رثائه في إحدى روائعه العاشورائية :

أيّ خطبٍ دكّ السما و الجبالا

وبه الأرض زُلزلتْ زلزالا

هو يوم الحسين أعظم يومٍ

قد أرانا بحزنه الأهوالا

فرأينا البكاء فيه سبيلا

فسلكناه طاعة وامتثالا

ومن الفنون الشعرية التي برع فيها الشيخ كاظم رحمه ا فن التخميس الذي كان مضمارا يتنافس فيه الشعراء آنذاك لإبراز قدراتهم ومهاراتهم في ترويض البيان لمشيئتهم الإبداعية . وقد أبدع الشيخ كاظم وجلّى في هذا المضمار و تفوّق على الكثير من شعراء عصره , يقول مخمّسا لأبيات من قصيدة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام مخاطبا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام :

أبا حسنٍ يا أمنع الناس جيرةً

وأعلى الورى فضلا و فخراً و سيرةً

بناتك يا كرّار أمست أسيرةً

(أترضى وأنت الثاقب العزم غيرةً

يلاحظها حسرى القناع يزيدُ ؟)

وقال في تخميس البيتين الشهيرين للمتنبي في أمير المؤمنين عليه السلام :

 نور المرتضى علَم الهدى

نور تبلّج بالضياء مدى المدى

رمتُ الحدود فلم أجدهُ محدّدَا

(وتركتُ مدحي للوصي تعمّدا

إذ كان نورا مستطيلا شاملا)

ناءٍ عن الإدراك جوهرُ قدسهِ

إذ كان متّحداً بأحمد جنسهِ

زيتٌ يكاد يضيءُ قبل ممَسّـهِ

(وإذا استطال الشيء قام بنفسهِ

وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا)

وقال في تخميس البيتين المنسوبين للإمام الحسين عليه السلام في حبه لإبنته سكينة و لزوجته الرباب :

ودادي للرباب فشا و سارا

فكان لها ولابنتها شعارا

فلا بهما أرى واﷲ عارا

(لعمرك أنني لأحب دارا

تحل بها سكينة والربابُ)

فلو لمحتهما شمس الجلالِ

عراها الخسف من فرط الجمال

ومذ بهما انطوى كل الكمال

(أحبهما وأبذل جل مالي

وليس لعاتبٍ عندي جوابُ)

وسببٌ آخر من أسباب تعلق الناس بالشيخ كاظم وشغفهم بشعره وهو ولعه بنظم الطريف والظريف من الأشعار و خاصة في عدد من المخترعات الحديثة التي بدأت تظهر في البلاد في أيامه , فلم يفته تسجيل اندهاش المجتمع بها و تفاعله معها لأول وهلة بروحه المرحة ولغته المنسابة , فقد كتب في الطائرة و في المذياع وفي المروحة و في غيرها .

يقول في السيارة من قصيدة طويلة :

قد ركبنا بمركبٍ سيّـارِ

وجميلٍ يضيءُ كالأقمارِ

وحجابٍ عن كل بردٍ و حَرٍ

وأمانٍ من كل ذئبٍ ضارِ

وعلى وجههِ سراجان لاحا

فأنارا كالكوكب السيّارِ

وقال في المروحة من أرجوزة طويلة أيضا :

وبَعْدُ إنّي ناظمٌ في المروحة

فوائدا بفضلها مفتتحة

لأنها جاءت إلينا فاخرة

وصوتها يشبه صوت الطائرة

رأيتها في السقف كالقنديلِ

لا حتْ لنا بوجهها الجميلِ

تميل لليمينِ و اليسارِ

كغصن بانٍ مال في الأشجارِ

وتُذهِبُ الحَـــرَّ عن الجسومِ

فتنعش النفوسَ بالنسيمِ

وقال في المذياع :

سبحان من خلق الإنسان من علقٍ

وعلم الناس أسرارًا و تبيانا

وأودع الجوهر الأعلى بفطنتهِ

فاستخرجتهُ لأهل الأرض برهانا

فصوت بغداد في الأحساء نسمعه

وصوت لندن في مصرٍ و لبنانا

ذلك هو الشيخ كاظم الصحاف رحمه ا , الشاعر الذي ملأ الدنيا و شغل الناس أينما حلّ , واستأثر بكل الدهشة والإعجاب , وتلك هي الأحساء التي كانت ولم ولن تزال محطة للعشق الإلهي , وأرجوحةً للمودة المحمدية , و منهلاً للولاء الحيدري , يقف الزمان أمامها كل يوم وقفة إجلال و إكبار لهذا الوفاء الذي لا تزيده العواصف الهوج إلا ثباتا في الأرض و شموخا في السماء .

هذا وصلى ا على محمد وآله الطيبين الطاهرين